الفتح الاسلامي لبلاد الاندلس

المدرس المساعد : زينب عباس سعيد
zainabsaeed@uomustansiriyah.edu.iq

بدايات الفتح

كان الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الايبيرية (إسبانيا والبرتغال) أمراً طبيعياً ، حسب الخطة التي اتبعها المسلمون أثناء فتوحاتهم ، وهي تأمين حدودهم ونشر دعوتهم. وذلك بالمضي في جهادهم إلى ماوراء تلك الحدود ، لنشر العقيدة الإسلامية التي تقتضي أن يستمر المد الإسلامي مادامت فيه القوة على الاستمرار. ولما وصل تيار الفتح إلى شمال إفريقية ، كان المد الإسلامي المكين يحمل عناصر القوة الذاتية الأصيلة . ومن هنا ما كان منتظراً من هذه القوة الجديدة - التي دفعت بالقائمين بها والعاملين فيها إلى الاستمرار - أن تقف عند شواطىء إفريقية الشمالية الغربية . فكان طبيعياً ومتوقعاً عبور هذا المد إلى إسبانيا ، عبر المضيق (المجاز أو الزقاق) .

بعد أن أرسى موسى بن نصير ، ومن معه ، كلمة الإسلام بجهودهم في الشمال الإفريقي ، كانت الخطوة التالية الطبيعية هي فتح الأندلس . وقد اتبع موسى خطة سليمة أكمل بها جهود من سبقه من الجند الدعاة - قادة وجيشاً - في ترسيخ قدم الإسلام في المغرب الكبير ، وأدرك - وتلك سنة متبعة - أن تعميق الإسلام وإقراره يتطلب تثبيته في النفوس، ليحافظ عليه ذاتياً ، وكيما تحيط قلوب الناس - لا القوة الغشوم - هذا الدين الجديد، وتلك أصالة فيه ، وأسلوب واضح ثابت ، تقيمه طبيعة هذا الدين ولا ترتضي غيره بديلاً. لذلك جهز موسى بن نصير جيشاً من نوع جديد - وكل جيوش المسلمين كذلك - يحمل العلم والمعرفة الإسلامية ، لترسيخ وتفقيه وإفهام المغاربة هذا الدين . مثل هذه الخطوة لها اعتبارها دوماً وهي متبعة في كل الظروف ، وأمكن بهذا لا أن يرسخ الإسلام في قلوبهم فحسب، بل غدوا يتحمسون لنشره في الخارج. حتى لقد كانت أكثرية جيش طارق إلى الجزيرة الإيبيرية من المسلمين البربر ، الذين تحمسوا لهذه العقيدة ، حباً لها وتضحية من أجلها ، لا طمعاً في مغنم أو حرصاً على جاه . هذا هو هدف جميع الفتوحات الإسلامية ، التي يكفي الاطلاع عليها ومعرفة طبيعتها لرفض الادعاءات وإسقاط المفتريات المزورة ، التي تشير - تلميحاً أو تصريحاً - إلى اعتبار الغنائم سبباً في هذا الفتح ، وهو أمر مضحك ومثير . تاريخ الفتوحات الاسلامية شاهد ثابت قوي في بيان هذه الحقيقة الساطعة. وبمتابعة تاريخها ينهار هذا الوهم وأمثاله ، مما لا يحمل أي رائحة من الطابع العلمي أو السند التاريخي .

فكرة الفتح :

يمكن القول بأن فكرة فتح الجزيرة الإيبيرية هي فكرة إسلامية تماماً . بل يروى بأنها فكرة قديمة تمتد إلى أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان. فقد كان القائد عقبة ابن نافع الفهري (٦٣ هـ) يفكر في اجتياز المضيق إلى إسبانيا لو استطاع. وسبق للمسلمين نشاط على شواطىء إسبانيا الشرقية وبعض جزر(الجزائر الشرقية) Mallorca (القريبة منها ، وهي ميورقة)Islas Baleares, Balearic Islands - كبراها - ومنورقة (Menorca) واليابسة (Ibeza) . يذكر الذهبي (٧٤٨ هـ) أنه في سنة ٨٩ هـ و جهز موسى بن نصير ولده عبد الله . فافتتح جزيرتي ميورقة ومنورقة (1) .

أما الاتصال بيليان (Julian) حاكم مدينة سبتة (Ceuta) ، أو بغيره من الإسبان ، فإنها جاءت مواتية على ما يبدو . في الوقت الذي كان موسى بن نصير) والي الشمال الإفريقي قبل وخلال فتح إسبانيا) يفكر في تنفيذ فكرة الفتح . لكن كيف تم الاتصال بالجانب الإسباني (يليان وأنصار الملك المخلوع وغيرهم)؟ اختلفت الأقوال فيما إذا تم الأمر بالمراسلة أو باللقاء الشخصي ، وأين ؟ إذا كان هذا الاتصال أصلاً قد تم وبهذا المستوى . على كل حال فإن اتصالات الجانب الإسباني بموسى ومساعداتهم - أثناء عمليات الفتح - ربما كانت عاملاً مساعداً سهل سير الفتح أو عجل به . لكن المبادأة ومرد العمليات وإنجازها كانت من الجانب الإسلامي الذي اندفع مع الفتح بقوة فائقة مرتكزاً على عقيدته لعل موسى بدأ استشارته للخلافة في دمشق الوليد بن عبد الملك : ٨٦ - ٩٦ هـ

قبل اتصالاته بيليان ، أو اتصال هذا الأخير بموسى . وقد ترددت الخلافة - بادىء الأمر بالقيام بمثل هذا العمل الكبير ، خوفاً على المسلمين من المخاطرة في مفاوز أو إيقاعهم في مهالك . لكن موسى أقنع الخليفة الوليد بالأمر ثم تم الاتفاق على أن يسبق الفتح

اختبار المكان بالسرايا أو الحملات الاستطلاعية . أرسل موسى في رمضان سنة ٩١ هـ) ٧١٠ م) سرية استكشافية إلى جنوب إسبانيا مكونة من خمس مئة جندي ، منهم مئة فارس بقيادة طريف بن مالك الملقب بأبي زرعة ، وهو مسلم من البربر. وجاز هذا الجيش الزقاق - اسم يطلق أحياناً على المضيق - من سبتة ، بسفن يليان أو غيره ، ونزل قرب أو في جزيرة بالوما في الجانب الإسباني ، وعرفت هذه الجزيرة فيما بعد باسم هذا القائد : جزيرة طريف (Tarifa) . عادت حملة طريف بالأخبار المطمئنة والمشجعة على الاستمرار في عملية الفتح. وفي ذلك ينقل المقري وغيره نصوصاً موضحة : (فكتب موسى بن نصير إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك يخبره بالذي دعاه إليه يليان من أمر الأندلس ، ويستأذنه في اقتحامها ، فكتب إليه الوليد أن خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها ، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال ، فراجعه أنه ليس ببحر زخار ، إنما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه ، فكتب إليه : وإن كان فلا بد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه . فبعث موسى عند ذلك رجلاً من مواليه من البرابرة اسمه طريف يكنى أبا زرعة في أربعمائة رجل معه مئة فرس ، سار بهم في أربعة مراكب ، فنزل بجزيرة تقابل جزيرة الأندلس المعروفة بالخضراء ، التي هي اليوم معبر سفائنهم ودار صناعتهم ، ويقال لها اليوم جزيرة طريف لنزوله بها.

من المتوقع أن يكون طريف درس أحوال المنطقة وتعرف على مواقعها ، وأرسل جماعات إلى عدة أماكن - منها جبل طارق - لهذا الغرض . فكانت هذه المعلومات عوناً في وضع خطة الفتح ونزول طارق بجيشه على الجبل .

ثانيا : مراحل الفتح

بعد رسم خطة البدء بعمليات الفتح ، جهز موسى بن نصير جيشاً من سبعة آلاف جندي من المسلمين البربر ، ليس فيهم من المسلمين العرب إلا العدد القليل . واختار طارق بن زياد - والي طنجة - قائداً لهذه الحملة ، التي تلتها – فيما بعد – نجدة من خمسة آلاف بقيادة طريف بن مالك . وطارق هذا مسلم بربري من قبيلة نفزة، كان طارق عسكرياً ناجحاً وقائداً ممتازاً ، مخلصاً للاسلام ، متحمساً لنشره وأن موسى كان يثق به وبكفاءته لهذا العمل الجليل الذي أناطه به .

حملة طارق بن زياد

وفي العام التالي لحملة طريف عبر طارق وجيشه من سبتة أيضاً - بسفن يليان أو بغيرها - إلى الطرف الإسباني، في الخامس من شهر رجب ٩٢ هـ (نيسان ٧١١م) . و من غير البعيد أن تكون للمسلمين سفن عملت و استعملها جيش طارق في هذه الحملة، وحدها أو مع غيرها ...

كانت نقطة تجمع الجيش الإسلامي في الطرف الإسباني على جبل صخري عرف فيما بعد باسم جبل طارق (Gibraltar) ، كما عرف به المضيق ، وبكل اللغات . ولقد سمي هذا الجبل - بعد الفتح الإسلامي - بأسماء أخرى ، مثل : الصخرة وجبل الفتح، لكن الشائع : جبل طارق.

بعد أن استكمل طارق تجمعاته على الجبل ، وضع الخطة أو درسها واستكملها - ربما مستفيداً من يليان وأعوانه ، في هذه المرحلة أو قبلها - وتم ذلك بكتمان وإحكام . « فمضى لسبتة ، وجاز في مراكبه إلى جبل ، فأرسى فيه فسمي جبل طارق باسمه إلى الآن ، وذلك سنة اثنتين وتسعين من الهجرة . ووجد بعض الروم وقوفاً في موضع وطيء كان عزم النزول فيه إلى البر ، فمنعوه منه ، فعدل عنه ليلاً إلى موضع وعر ، فوطأه بالمجاذف وبراذع الدواب ، ونزل منه في البر وهم لا يعلمون. يذكر ابن حيان أن طارقاً تجهز) في سبعة آلاف من المسلمين جلهم من البربر ، في أربع سفن ، وحط بجبل طارق المنسوب إليه يوم السبت في شعبان سنة اثنتين وتسعين ،

وتم اللقاء بين الجيش الإسلامي والقوطي يوم الأحد ٢٨ رمضان سنة ٩٢ هـ (أواسط تموز ٧١١ م) ، في كورة شذونة (Sidonia) جنوب غربي إسبانيا في سهل الفرنتيرة (Frontera) جنوب بحيرة الخندق (Janda) ونهر برباط (Barbate) المتصلة به . قد تعرف أحياناً معركة ونهر برباط في الرواية الإسلامية معركة ووادي بكه أو لكه) لعله مأخوذ من Lago وهو البحيرة ، أي بحيرة الخندق. فأصبحت البحيرة علماً على المكان.

كان اللقاء بين المسلمين والقوط حاسماً ، وامتن الله على المسلمين بالنصر الكبير . فشتت الجيش القوطي وقتل الذريق أو غرق) فالتقيا يوم الأحد ، وحملوا حملة رجل واحد على المشركين ، فخذلهم الله وزلزل أقدامهم، وتبعهم المسلمون بالقتل والأسر ، ولم يعرف لملكهم الذريق خبر ، ولا بان له أثر
فقيل إنه ترجل وأراد أن يستتر في شاطيء الوادي ، فصادف غديراً فغرق فيه فمات. في حين يذكر البعض أن الذريق فرّ من الميدان والتقى بالمسلمين في معركة أخرى، شمالي إسبانيا ، قتل فيها، وسار الجيش الإسلامي فاتحاً لبقية مناطق الجزيرة الإيبيرية وحين ترامت أنباء النصر المبين في هذه المعركة إلى الشمال الإفريقي وفد بعض الناس ملتحقين بجيش طارق مجاهدين. وفرق طارق بعض جنده في بعوث جانبية، وتوجه هو إلى طليطلة ، عاصمة المملكة القوطية ، ولم يتوقف بعد هذه المعركة الكبرى كثيراً كيلا يتيح للجيش المنهزم فرصة التجمع . لكن الجيش القوطي تجمع عند مدينة إستجة لحرب الجيش الاسلامي . فزحف طارق إليه فاتحاً في طريقه بعض المدن . مر طارق بمدينة شذونة (Medina Sidonia) ، وفتحها بعد حصار ، ومضى إلى مورور (Moron) وافتتحها . ثم عطف على مدينة قرمونة ثم تقدم إلى إشبيلية، فتم له فتحها صلحاً . اتجه بعدها إلى مدينة إستجة ، حيث دارت معركة حامية هزم فيها الجيش القوطي وافتتحت المدينة . أما ، إشبيلية فصالحه أهلها على الجزية ، ثم نازل أهل إستجة وهم في قوة ومعهم فل عسكر الذريق ، فقاتلوا قتالاً شديداً حتى كثر القتل والجراح بالمسلمين ، ثم إن الله تعالى أظهر المسلمين عليهم ، فانكسروا ، ولم يلق المسلمون فيما بعد ذلك حرباً مثلها ، وأقاموا على الامتناع إلى أن ظفر طارق بالعلج صاحبها فصالحه.
وجه طارق من إستجة سرايا من جنده إلى عدة جهات . فبعث جيشاً بقيادة مغيث الرومي لفتح مدينة قرطبة (Cordoba) في سبع مئة فارس . واستطاع مغيث فتح المدينة دون مشقة كبيرة بفضل شجاعة وصدق المحاربين المسلمين. وأرسل جيشاً آخر إلى مدينة مالقة (Malaga) وآخر إلى كورة البيرة (Elvira)، حيث افتتح مدينتها غرناطة (Granada) وكذلك إلى كورة تدمير (Tudmir) وكانت قاعدتها أوريولة (Orihuela) - التي حلت مدينة مرسية (Murcia) محلها قاعدة لكورة مرسية بدلاً من تدمير .وقد حدثت معارك عدة في هذه المناطق، لكن المسلمين استطاعوا فتح عدة مدن
سار طارق بعدها إلى عاصمة القوط طليطلة (Toledo) ، ماراً بمدينة جيان (Jaen) وفتح طليطلة ، وعامل أهلها بكل إنصاف ، تاركاً لهم حرياتهم كاملة،
سار طارق بعدها شمالاً إلى منطقة وادي الحجارة (Guadalajara) حتى وصل مدينة المائدة أو بعدها . بينما يقول البعض أن طارقاً وصل إلى مناطق في شمال اسبانيا ثم عاد الى طليطلة قبل حلول الشتاء.

عبور موسى بن نصير
بعدما وصلت اخبار الانتصار التي حققها طارق بن زياد جهز موسى جيشاً قوامه ثمانية عشر ألفاً ، وعبر المضيق إلى إسبانيا في رمضان سنة ٩٣ هـ (حزيران ٧١٢ م) (٢) - جاز الزقاق إلى إسبانيا ، من سبتة إلى جبل طارق أو قريباً منه أو من طنجة) إلى الجزيرة الخضراء بسفن كان قد أعدها . وانشا في الجزيرة مسجدا عرف بمسجد الرايات، ثم سار في طريق مختلف عن طارق بن زياد ليحكما الاندلس في كقبضة كماشة من اتجاهين ففتح شذونة واشبيلية وماردة وتدمير ثم واصل سيره حتى طليطلة حيث ثم اللقاء بطارق بن زياد سنة 94هـ. وساروا معا في فتوحاتهم شمال اسبانيا ففتحوا سرقصطة وغيرها من المناطق حتى تم استدعاهما من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة 95هـ.